المقال
الخميس ٢٩ أكتوبر ٢٠١٥
www.Al-maqal.com

# أئمة السلف فسروا «السلف» فى القرآن خطأ واعتبروها مذهبا

## □ لماذا اعتبر الحنابلة مذهبهم هو خير المذاهب العقدية باعتبار أن الحنفية والمالكية والشافعية مذاهب فقهية فقط؟

محمد السعيد مشتهرى

لقد ذُكرت كلمة «السلف»، فى القرآن الكريم فى موضع واحد من سورة الزخرف، وهو قوله تعالى عن هلاك فرعون وقومه: «فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ». لقد جعل الله مصير فرعون وقومه «سَلَفًا» ومثلًا، ليأخذ الخلف منه العبرة، وليعلموا أن انتقام الله سينالهم إن هم ساروا فى طريقهم، وعملوا عملهم فهل أخذ المسلمون العبرة، وسلكوا طريقًا غير طريق سلفهم الطالح، «الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ»؟!!

عندما تحدث القرآن عن السلف الصالح، ذكر إبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه، وأمر المسلمين أن يتأسوا بهم فى ملة «الوحدانية»، فقال الله تعالى: «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ»، ثم بيّن بعدها موضع الدرس فقال: «إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ».

لقد ضرب إبراهيم والذين آمنوا معه المثل الأعلى فى الوحدانية، قال تعالى فى سورة البقرة الآية ١٣٣: «أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

ثم بيّن الله تعالى أن الناس لا يسألون عن أعمال سلفهم الصالح أو الطالح، موحدين أم مشركين، وإنما يسألون عن أعمالهم هم، فقال تعالى فى الآية ١٣٤: «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ»، ولأهمية هذا البيان كرر هذه الآية مرة أخرى «الآية ١٤١».

إن قوله تعالى «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ» خبر عن أمة مضت، أى خلا منها المكان والزمان، وعندما يذكرها القرآن فى هذا السياق فذلك لبيان أن من خلت منهم الأرض «الموتى»، لن ينفعوا من عليها «الأحياء»، إلا فى حدود ما جاءت ببيانه الرسالات الإلهية، وليس من خلال المرويات والمدونات التاريخية، لذلك عقب الله بقوله «وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

هذا عن تحرير مصطلح «السلف»، حسب وروده فى السياق القرآنى واللسان العربى، فكيف استطاع أئمة السلف تحريفه وتوظيفه لخدمة توجهاتهم المذهبية؟!

لقد ظهرت «السلفية» فى القرن الثالث الهجرى على يد **أحمد بن حنبل** «ت ٢٤١هـ»، ثم قام ابن تيمية بعد ما يقرب من خمسة قرون بإحيائها وتجديدها «ت ٧٢٨هـ»، وخلال هذه القرون وإلى اليوم، عاش المسلمون داخل هذه المنظومة السلفية، يفهمون الدين كما فهمه السلف، يأكلون ويشربون كما فعل السلف، ويختلفون كما اختلف السلف، ويتخاصمون كما تخاصم السلف، ويسفكون الدماء بغير حق كما فعل السلف!!

لقد تشكلت المرجعية السلفية لفرقة أهل السنة والجماعة على مرحلتين: الأولى: على يد أحمد بن حنبل «ت ٢٤١هـ»، والثانية: على يد **أبى الحسن الأشعرى** «ت ٣٢٤هـ»، ومنذ القرن الثالث الهجرى وأهل السنة والجماعة لا يعرفون شيئًا عن الإسلام ملة وشريعة، إلا من خلال المذهب الحنبلى أو الأشعرى!!

ولكن المذهب الحنبلى لم يستطع الانتشار، لأنه كان أكثر المذاهب تشددًا وإشعالاً لأزمة التخاصم والتكفير بين المسلمين، استنادًا إلى اجتهادات أئمته المغلقة والمفرطة، خصوصًا فى باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حتى جاء عصره الذهبى عندما تبناه محمد بن عبد الوهاب النجدى «ت ١٢٠٦هـ»، باعث السلفية المعاصرة، الذى استطاع توفير الأموال الطائلة التى ساعدت على انتشار المذهب الحنبلى فى البلاد، حتى أصبح هو الممثل الرسمى للإسلام!!

لقد اختلف أئمة السلف أنفسهم فى تعريف من هم «السلف»، فمنهم من قال هم رسول الله وصحبه، ومنهم من أضاف إليهم الخلفاء الراشدين والتابعين، ومنهم من قال هم أئمة القرون الثمانية الأولى، ولكن الحنابلة حصروا «السلفية» فى أئمة القرون الهجرية الثلاثة الأولى، استنادًا إلى رواية البخارى ومسلم، عن عبد الله بن مسعود:

«خير الناس قرنى، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يجىء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته».

قال النووى فى شرح الحديث: الصحيح أن قرنه الصحابة، والثانى التابعون، والثالث تابعوهم.

لقد اعتبر الحنابلة أن وفاة أحمد بن حنبل فى القرن الثالث الهجرى «ت ٢٤١هـ»، تعنى أن مذهبهم هو خير المذاهب العقدية، باعتبار أن الحنفية والمالكية والشافعية مذاهب فقهية، فلم يكونوا يعلمون أن هناك من سيأتى فى القرن السابع الهجرى ليحيى مذهبهم ويجدده، ويكون هو الأكثر تأثيرًا فى عقائد المسلمين وتطرفها، وهو ابن تيمية «ت ٧٢٨هـ»، ثم من بعده محمد بن عبد الوهاب «ت ١٢٠٦هـ»!!

فلماذا لم ترتبط «السلفية» بمذهب أبى حنيفة «٨٠ ـ ١٥٠هـ»، أو بمذهب مالك «٩٣- ١٧٩هـ» وهو إمام دار الهجرة، أو بمذهب الشافعى «١٥٠-٢٠٤هـ»، الذى عاصر أحمد بن حنبل «١٦٤-٢٤١هـ»، وهى ليست مذاهب فقهية فقط، وإنما تكلمت أيضًا فى العقائد، وقد عدّها البعض من المذاهب الكلامية التى تبحث فى صفات الله؟!

لقد ذكر البغدادى، فى كتابه «الفرق بين الفرق»، أن أول المتكلمين من أهل السنة هما أبو حنيفة والشافعى، اللذان تحدثا عن القضاء والقدر والجبر والاختيار، وعن الذات الإلهية، وغيرها من القضايا الكلامية، نقلاً عن بعض الصحابة والتابعين!!

فإذا أردنا اليوم تحرير مصطلح «السلفية» من كل لبس أو تحريف مذهبى شابه، فهل نستطيع؟!

إننا أمام حديث متفق عليه بين البخارى ومسلم، أى فى أعلى درجات الصحة، تستند إليه «المنظومة السلفية» فى خيرية أئمة القرون الثلاثة الأولى على سائر الأئمة، ولكن «السلفية» التى تربى عليها المسلمون من أهل السنة، هى سلفية ابن تيمية «ت ٧٢٨هـ»، وسلفية محمد بن عبد الوهاب «ت ١٢٠٦هـ»، وهما خارج القرون الثلاثة الأولى، فما موقف أنصار ابن تيمية والوهابية من رواية البخارى ومسلم؟!

وهل هذه الخيرية التى خص بها الرسول القرون الثلاثة الأولى كانت قاصرة على فرقة أهل السنة والجماعة، وبذلك يكون هذا الحديث دليلاً صريحًا على أن الفرقة الناجية هى فرقة أهل السنة بقيادة منظومتها «السلفية»، والباقى فى النار؟!

ثم كيف تشمل الخيرية القرن الأول الهجرى، وقد حدثت فيه الفتن الكبرى، التى شارك فيها الصحابة، وسفكت فيه الدماء بغير حق، وقام فيه الملك العضوض بقيادة الخلافة الأموية؟!

لقد ظهرت المذاهب العقدية المتصارعة فى القرون الثلاثة الأولى، واحتدم الصراع بينها، فأحمد بن حنبل «ت ٢٤١هـ» يتهم أبا حنيفة «ت١٥٠هـ» بالقول بخلق القرآن، وكل من قال بخلق القرآن فهو جهمى، وكل جهمى فى نظر الحنابلة كافر!!

وكان أحمد بن حنبل يؤمن بوجوب طاعة الحكام وإن فجروا وظلموا، وهو موقف السلفية بشكل عام، فكان يُحرم الخروج على خلفاء عصره من العباسيين، وهذا ما جعله يُخرج أبا حنيفة من أئمة السلف، لأنه لم يقبل الخضوع لأبى جعفر المنصور، ثانى خلفاء بنى العباس «ت ١٥٨هـ»، ووقف مع آل البيت فى مواجهة ظلم المنصور، وعندما دعاه ليتولى منصب قاضى القضاة امتنع، فحبسه إلى أن توفى فى بغداد عام ١٥٠هـ!!

ولقد كان للحنابلة مواقف تخاصمية تكفيرية على مر العصور، فقد كفروا الأشاعرة، ورفضوا المذهب المالكى ونهوا السلفيين عن تقليده، وسبوا الشافعى وطعنوا فى إمامته وترصدوا لأتباعه فى الطرقات، وما حدث من فتن ببغداد بين الشافعية والحنابلة، وبين الحنابلة والأشعرية وما يعرف بفتنة ابن القشيرى «الأشعرى»، التى وقعت فى القرن الخامس الهجرى.. إلى آخر ما هو مفصل فى تاريخ الفرق والمذاهب العقدية.

سأل أحد المصلين الشيخ عبد الله الهروى «ت ٤٨١هـ»، وهو أحد شيوخ الحنابلة، وصاحب كتاب «ذم الكلام»: هل تجوز الصلاة خلف صاحب عقيدة مخالفة لأهل السنة والجماعة كالأشعرى مثلاً؟!

الجواب: «الحاصل أن الصلاة تصح خلف مبتدع بدعة لا تخرجه عن الإسلام، أو فاسق فسقًا ظاهرًا لا يخرجه من الإسلام، لكن ينبغى أن يولى صاحب السنة»!!

انظر إلى قوله: «لكن ينبغى أن يولى صاحب السنة»، أى أن الأشعرى ليس من أهل السنة، لأنه فى نظر السلفية مبتدع!!

لقد اعتبر ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية الأشعرى جبريًا، ثم جاءت الأشعرية فأفتوا بسجن ابن تيمية، لأنه ذهب إلى التجسيم والتشبيه، وأصدروا فتوى أن من كان على دين ابن تيمية فقد حل دمه!!

فهل يعقل أن تكون القاعدة الأساس التى قام عليها تدين معظم المسلمين اليوم هى هذه المنظومة السلفية بقيادة أحمد بن حنبل «١٦٤-٢٤١هـ»، ويقابلها المنظومة الأشعرية بقيادة أبى الحسن الأشعرى «٢٦٠-٣٢٤هـ»، والمنظومتان ضربتا أسوأ المثل فى تاريخ الصراع العقدى المذهبى؟!

لقد أصبحت الحدود الجغرافية للبلاد حدودًا دينية سلفية، تقتل على الهوية، ويحافظ السلفيون على هذه الحدود السلفية أكثر من محافظة الأنظمة الحاكمة على حدودها الجغرافية، وعلى الرغم من أن دساتير البلاد تنص على أن دين الدولة الإسلام، وأن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع، فإن التابعين للمؤسسات الدينية الرسمية وغير الرسمية فى البلاد، العاملين بالكتاب والسنة، أعضاء فى هذه المنظومة السلفية المتطرفة!!

فمتى ستتعلم الشعوب الدرس، وتفهم أن الإسلام الذى كان عليه رسول الله محمد، عليه السلام، لم يكن إسلام ابن حنبل، ولا إسلام ابن تيمية، ولا إسلام ابن عبد الوهاب؟! «فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ».

**أبو الحسن الأشعرى**

من نسل الصحابى الجليل أبى موسى الأشعرى، وهو المنظر الأول لمواقف أهل السنة ومؤسس المذهب المعروف باسمه، بعد أن انشق عن المعتزلة إثر خلاف بينه وبين شيخه. كان يريد أن يقيم مذهبًا وسطًا يجمع بين منهج المعتزلة العقلانى والفكر السُنى المعتمد على الرواية والحديث.

**ابن حنبل**

فقيه ومحدّث ورابع الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة، وصاحب المذهب الحنبلى فى الفقه الإسلامى، ويُعدّ كتابه «المسند» من أشهر كتب الحديث وأوسعها. وُلد سنة 164هـ فى بغداد ونشأ فيها يتيمًا، وقد كانت بغداد فى ذلك العصر حضارة العالم الإسلامى.